الباب الثانى

خصال العلماء ومكانتهم

من خصال العلماء في القرآن الكريم

الخصلة الأولى : أنهم أشد الناس وأكثرهم خشية لله تعالى قال تعالى : إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ وقال تعالى فى موضع آخر(ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ).

الخصلة الثانية : أنهم خير البرية حيث قال تعالى فى سورة البينة (أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) قال ابن جماعة الكناني رحمه الله تعالى فاقتضت الآيتان إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ، أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ أن العلماء هم الذين يخشون الله تعالى وهم خير البرية فينتج أن العلماء هم خير البرية[1] وجاء في الحديث : من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين[2] .

الخصلة الثالثة : أن منزلتهم أرفع منزلة وأزكاها، قال تعالى يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) .

الخصلة الرابعة : أنهم من أولي الأمر الذين أمرنا الله عز وجل بالرجوع لهم والصدور عن قولهم، قال تعالى : وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ

1تذكرة السامع : ص6 2 رواه الشيخان

الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا .

الخصلة الخامسة : أنه لا يساويهم أحد في منزلتهم ولا رتبتهم قال تعالى : قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

الخصلة السادسة : أنهم المرجع عند السؤال والإشكال والمعضلات، قال تعالى : فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

الخصلة السابعة : أنهم يعقلون من مراد الله ما لا يعقله غيرهم : وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .

الخصلة الثامنة : أن الله تعالى جعل شهادتهم في المرتبة الثالثة بعد شهادته ثم شهادة الملائكة، قال تعالى : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

الخصلة التاسعة : أن الله لم يأمر نبيه بالتزود من شيء إلا من العلم الذي رفع الله به شأن العلماء قال تعالى : وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا .

الخصلة العاشرة : أنهم أبصر الناس بالشر ومداخله قال تعالى : قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ.

<u>من تعظيم اليهود لعلمائهم وإجلالهم لهم</u>

هناك طائفة من اليهود يسمى أهلها الحسيديم، وهؤلاء ينظرون إلى زعيمهم الذي يسمونه صديق وهي كلمة عبرية تعني (ولي) وتجمع على صديقيم نظرة فيها الكثير من القدسية والإجلال ويعتبرونه مرشدًا ومعلمًا وموجهًا يعطونه ثقة كاملة ويطيعونه طاعة مطلقة وهو الوحيد الذي يعترفون له بالذنوب ويحدّثونه بأسرارهم وعما تكنه ذخائر نفوسهم وجاء في بروتوكولات حكماء صهيون ، كل قرار سيتخذه أمرنا العالي سيقابل بالإجلال والطاعة دون قيد ولا شرك.

فالعلماء الربانيون يجب احترامهم وإجلالهم، لما يحملونه من دين الله جل وعلا، ومن ميراث سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، فالعلماء ورثة الأنبياء، وهم الذين استشهد الله عز وجل بهم على أجل مشهود به وهو التوحيد وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، فقال تعالى: (شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)وضمن ذلك تعديلهم فإنه سبحانه وتعالى لا يستشهد بمجروح راجع مدارج السالكين.

من خصال العلماء في السنة 36

الخصلة الحادية عشرة : أنهم أولياء الله تعالى، قال تعالى : أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وقال الرسول صلى الله عليه وسلم فيما ذكره البخارى: قال الله تعالى من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب وقال الشافعي : إذا لم يكن العلماء أولياء الله فلا أعرف لله وليًا وقال النووي : قال القشيري : يحتمل الولي أمرين :

الأول : أن يكون فعيلاً مبالغاً في الفاعل، كالعلم بمعنى العالم والقدير بمعنى القادر ، فيكون معناه، توالت طاعته من غير تخلل معصية .

الثاني : أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول، كقتيل بمعنى مقتول وجريح بمعنى مجروح، وهو الذي يتولى الله سبحانه وتعالى حفظه وحراسته على الإدامة والتوالي (بستان العارفين) .

الخصلة الثانية عشر : أن الطريق الذي سلكوه مؤدٍ إلى الجنة .

الخصلة الثالثة عشر: أن الملائكة تضع أجنحتها لهم رضا بما يصنعون.

الخصلة الرابعة عشر : أن من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في جوف الماء تستغفر لأهل العلم .

الخصلة الخامسة عشر : أن فضل العلماء على العُبّاد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب .

الخصلة السادسة عشر : أنهم ورثة الأنبياء .

الخصلة السابعة عشر : أنهم أخذوا بحظ وافر من ميراث الأنبياء.

ومجمع هذه الخصال من الثانية عشر إلى السابعة عشر ما رواه أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهل الله به طريقاً من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد

كفضل القمر ليلة البدر، على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر.[1]

---

1 رواه أحمد والأربعة عن أبي الدرداء رضى الله عنه.

الخصلة الثامنة عشر : أن في ذهابهم مفسدة للأمة وضياعاً لها، قال صلى الله عليه وسلم :إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤساء جُهّالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا.[1]

الخصلة التاسعة عشر : أن بضاعتهم باقية بعد موتهم وأغلب بضاعة من سواهم زائلة ، قال صلى الله عليه وسلم : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له[2].

الخصلة العشرون : أن أجرهم يتضاعف بتضاعف المنتفعين بعلمهم، قال صلى الله عليه وسلم «من دل على خير فله مثقل أجر فاعله[3] .

الخصلة الحادية والعشرون : أن مجالسهم محفوفة بالملائكة .

الخصلة الثانية والعشرون : أن الرحمة تغشى مجالسهم .

الخصلة الثالثة والعشرون : أن السكينة تنزل عليهم في مجالسهم .

---

1 رواه أحمد والبيهقي والترمذي وابن ماجه عن ابن عمرو 2 رواه مسلم والترمذي والنسائي وأبو داود والبخاري 3رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي عن ابن مسعود رضى الله عنه)

الخصلة الرابعة والعشرون : أن الله تعالى يذكرهم فيمن عنده .

وهذه الخصال الأربع يجمعها قول النبي صلى الله عليه وسلم (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده[1]

الخصلة الخامسة والعشرون : أن جليسهم لا يشقى بهم : [هم القوم لا يشقى بهم جليسهم] [2]

الخصلة السادسة والعشرون : أنهم أولى الناس بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم بالنضارة .

الخصلة السابعة والعشرون : أنهم المبلغون لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ودليل هاتين الخصلتين قول النبي صلى الله عليه وسلم : نضر الله امرءًا سمع منا حديثًا فأدّاه كما سمعه[3] .

1(رواه مسلم وأبو داود وأحمد والترمذي عن أبي هريرة رضى الله عنه) 2(رواه الترمذي) 3رواه أحمد

الخصلة الثامنة والعشرون : أن في تقريب السلطان واستشارته لهم والصدور عن رأيهم صلاح له ولدولته قال صلى الله عليه وسلم : ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضّه عليه، والمعصوم من عصمه الله[1] .

الخصلة التاسعة والعشرون : أنهم أشد بلاء من غيرهم سوى الأنبياء قال صلى الله عليه وسلم : أشد الناس بلاءً الأنبياء[2] .

الخصلة الثلاثون : أن محبة العلماء وذكرهم بالجميل من سلامة المعتقد قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى : وعلماء السلف من السابقين ومن

بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر، لا يُذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل[3] .

الخصلة الحادية والثلاثون : أن لهم حقًا يجب مراعاته قال صلى الله عليه وسلم :ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه[4]

---

1 رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه 2 (رواه الترمذي وابن ماجه والدارمي عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه) . 3 العقيدة الطحاوية ص445 4 (رواه أحمد والحاكم عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه)

الخصلة الثانية والثلاثون: أنهم للناس كالأرض التي أنبتت الكلأ والعشب وأمسكت الماء فانتفع الناس فمنهم من أكل ومنهم من احتطب ومنهم من سقى، فالعلماء مصدر خير ونفع ، قال صلى الله عليه وسلم : مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا [1] .

الخصلة الثالثة والثلاثون : أنهم عدول الأمة .

الخصلة الرابعة والثلاثون : أنهم المدافعون عن الدين ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين ويجمع هاتين الخصلتين ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين .

مكانة العلماء في الأمة

الناظر لأحوال أمة الإسلام في وقتنا الحاضر يرى مدى تقصير الناس

1- رواه البخاري ومسلم

في حق علماءهم، حيث أصبح الحديث عنهم فاكهة المجالس، والذم والقذف سمة بارزة عنهم، والتنقص من قدرهم ظاهرة منتشرة بين بعض الناس، حتى أصبح من الناس زاهدين فيهم وفي علمهم،فهل يليق بالمسلمين أن يفعلوا ذلك مع من عظّم الله شأنهم، وأعلى قدرهم، وأثنى عليهم، وأفاض عليهم من معين فضله قال تعالى:(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

يقول الإمام الآجري رحمه الله مبيناً فضل العلماء: (إن الله عز وجل ، وتقدَّست أسماؤه، اختصَّ من خلقه من أحب، فهداهم للإيمان، ثم اختصَّ من سائر المؤمنين من أحب، فتفضَّل عليهم، فعلَّمهم الكتاب والحكمة وفقههم في الدين، وعلمهم التأويل وفضَّلهم على سائر المؤمنين، وذلك في كل زمان وأوان، رَفعهم بالعلمِ وزَينهم بالحلمِ، بهم يَعرف الحلال من الحرام، والحق من الباطل، والضار من النافع، والحسن من القبيح فضّلهم عظيم، وخَطرهم جزيل، وَرثةُ الأنبياء، وقُرةُ عين الأولياء، الحيتان في البحار لهم تستغفر، والملائكة بأجنحتها لهم تخضع، والعلماء في القيامة بعد الأنبياء تشفع، مجالسهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة، هم أفضل من العبَّاد، وأعلى درجة من الزُّهاد، حياتهم غنيمة، وموتهم مصيبة، يُذكِّرون الغافل، ويعلّمون الجاهل، لا يتوقع لهم بائقة، ولا يخاف منهم غائلة، بحسن تأديبهم يتنازع المطيعون، وبجميل موعظتهم يرجع المقصرون، جميع الخلق إلى علمهم محتاج، والصحيح على من خالف بقولهم محجاج.

الطاعة لهم من جميع الخلق واجبة، والمعصية لهم محرمة، من أطاعهم رشد، ومن عصاهم عَنَد.

هم سراج العباد، ومنار البلاد، وقوام الأمة، وينابيع الحكمة، هم غيظ الشيطان، بهم تحيا قلوب أهل الحق، وتموت قلوب أهل الزيغ، مثلهم في

الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، إذا انطمست النجوم تحيّروا، وإذا أسْفَر عنها الظلام أبصروا، وصدق الله العظيم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحْ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) وقال الله عز وجل : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ).

وقال عز وجل : (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ) وقال عز وجل : (وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ) وقال عز وجل : (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) .

وقال عز وجل : (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً) قال محمد بن الحسين: وهذا النعت ونحوه في القرآن، يدل على فضل العلماء، وأن الله عز وجل جعلهم أئمة للخلق يقتدون بهم.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكنهم ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر)؛[1]

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (فقيه واحد أشد على إبليس من ألف عابد)[2] وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)؛[3] وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إن مثل العلماء في الأرض كمثل نجوم السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم يوشك أن تضل الهداة)[4].

1رواه أبو داود، وصححه الألباني في سنن أبي داود وعن ابن عباس رضي الله عنهما 2 رواه الطبراني، وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب ضعيف جداً 3 متفق عليه 4رواه أحمد، وضعفه الألباني .

وعن الحسن أن أبا الدرداء رضي الله عنه قال: (مثل العلماء في الناس كمثل النجوم في السماء يهتدى بها) وقال كعب الأحبار: (عليكم بالعلم قبل أن يذهب، فإن ذهاب العلم موت أهله، موت العالم نجم طمس، موت العالم كسر لا يجبر، وثلمة لا تسد، بأبي وأمي العلماء قال: أحسبه قال: قبلتي إذا لقيتهم، وضالتي إذا لم ألقهم، لا خير في الناس إلا بهم) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله عز وجل لا يقبض العلم انتزاعا، إنما يقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس

رءوسا جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا)[1] وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعا ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون)[2] إن الثقات عند الله هم العلماء، وقد أشهدهم على توحيده من فوق سبع سماوات، قال الله تعالى فيهم: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[3] .

---

1 متفق عليه 2 رواه البخاري 3 آل عمران: 18 .

والله تعالى مدحهم وأثنى عليهم، وجعل كتابه آيات بينات في صدورهم، به تنشرح وتفرح وتسعد قال تعالى: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) وبيّن سبحانه أنهم ورثة الأنبياء، وأنهم أهل الذكر الذين أمر الناس بسؤالهم، قال الله تعالى:(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) وأخبر سبحانه أن العلماء يستغفر لهم كل شيء، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (صاحب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر) [1] .

وبيّن سبحانه أن أهل العلم الذين يبلغون الناس شرع الله تعالى هم أنضَّر الناس وجوهًا، وأشرفهم مقامًا، بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم قال صلى الله عليه وسلم:(نضَّر الله امرأ سمع مقالتي فبلغها، فرب حامل فقه غير فقيه،رب حامل فقه إلى من هو أفقه)[2] وأخبر تعالى أن العلماء هم أكثر الناس خشيةً له، قال تعالى فيهم: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) [3] .

إن العلماء من أفضل المجاهدين في سبيل الله بجهادهم بالحجة والبيان، وهو جهاد الأئمة من ورثة الأنبياء، وهو أعظم منفعة من

---

1 أخرجه أبو يعلى 2 رواه ابن ماجه 3 – (فاطر: 28)

الجهاد باليد واللسان، لشدة مؤنته، وكثرة العدو فيه قال تعالى: (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً * فَلا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً) يقول ابن القيم رحمه الله : (فهذا جهاد لهم بالقرآن، وهو أكبر الجهادين، وهو جهاد المنافقين أيضاً، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين، بل كانوا معهم في الظاهر، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم، ومع هذا فقد قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)وما يدور في الساحة اليوم من فوضى الاجتهاد عند بعض

المتعالمين، وكارثة الفوضى في الفتيا، والقول على الله بغير علم، والتلاعب بالحلال والحرام حسب الأهواء، مع وجود طوفان هائج من العولمة والتغريب، تحتاج لوقفة جادة وحازمة لمعرفة قيمة وجود العلماء الربانيين، فغيابهم يخلي تلك الساحة لغيرهم من الرويبضة، وأنصاف المتعلمين، فكم نحتاج في هذه الأحوال إلى وقفات حازمة لوضع الضوابط الشرعية في المجالات كافة، حتى تعبر سفينة الأمة بأمانٍ في بحر الفتن المتلاطم، وسير المحن المتفاقم، إلى شاطئ السلامة وبر النجاة.

إن دين الله محفوظ، وشريعته باقية بوجود العلماء الربانيين، فأعلام الدين مرفوعة بحمد الله، قال صلى الله عليه وسلم : (ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك)؛ ، وعنه صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها) [1] ، وقال: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) [2] فالعلماء باقون بذكرهم أحياء بعلمهم، يلهج الناس بالثناء عليهم والدعاء لهم، ويجتهدون في اقتفاء آثارهم، وترسم خطاهم، علماً وعملاً، ودعوة ومنهاجاً، تشبهاً بالكرام وإن لم يكونوا مثلهم، فتلك أمارة الفلاح ولقد ظهرت في الآونة الأخيرة بوادر

سيئة تنم عن وجود أقوام يقدحون في العلماء، ويتكلمون في أعراضهم، ويتحينون فرص الخطأ منهم كي يعظموها، ويستغلوها أسوأ استغلال لإيجاد فجوة بينهم وبين عامة المسلمين حتى لا يسمعوا لهم، ولا يأخذوا عنهم، ويأبى الله ذلك فالعلماء لهم مكانة خاصة في قلوب الناس فهم معروفون بإخلاصهم وصدقهم وحرصهم على نفع المسلمين والقدح في العالم لا يتناول شخصه، بل يتعدى ذلك للعلم الذي يعلمه ويُعلمه للناس، ولا يقدح فيهم إلا زنديق كما قاله الإمام أحمد، وإذا انتُقص العالم وأهين، فمن يثق الناس به، وإذا زالت ثقتهم بالعالم فعمّن يتلقون الدين؟.

---

1 رواه أبو داود 2 رواه البيهقي

العلماء لهم احترام ومنزلة ولا يجوز الطعن فيهم ولا تنقصهم حتى لو حصل من بعضهم خطأ في الاجتهاد، فهذا لا يقتضي تنقصهم؛ لأنهم قد يخطئون، ومع ذلك هم طالبون للحق، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد)، وهذا في حق العلماء وليس المتعالمين؛ لأنه لا يحق لهم أن يدخلوا فيما لا يحسنون .

فضل العلم والعلماء

يقول عز وجل:(وَمَا كَانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) ولقد رفع الله تعالى شأن العلم وأهله، وبيَّن مكانتهم، ورفع منزلتهم، فقال سبحانه وتعالى: (يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) ولم يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستزادة من شيء إلا من العلم، فقال له سبحانه (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً) وما ذاك إلا لما للعلم من أثر في حياة البشر، فأهل العلم هم الأحياء، وسائر الناس أموات.

ولقد منع الله سبحانه المساواة بين العالم والجاهل؛ لما يختص به العالم من فضيلة العلم ونور المعرفة(أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ) فالعلم شرف لا قدر له، ولا يجهل قدر العلم وفضله إلا الجاهلون قال عبد الملك بن مروان لبنيه: يا بَني، تعلموا العلم؛ فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطاً سدتم، وإن كنتم سوقة عِشتم.

إن طلب العلم خير ما ضُيِّعت فيه الأعمار، وأُنْفِقت فيه الساعات، فالناس إما عالم أو متعلم، أو همج رعاع (مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً) ولقد جاءت

نصوص الكتاب والسنة منوهة بفضل العلم وأهله، والحث على تعلمه وكسبه، فقد شرف الله تعالى هذه الأمة؛ حيث جعلها أمة العلم والعمل معاً، تمييزاً لها عن أمم الظلم والجهل وجاءت الصيحة الأولى المدوية التي أطلقها الإسلام في أنحاء المعمورة؛ لتنوه بقيمة العلم والعلماء، وتسمو بقدره، وتجعل أول لَبنة في بناء الأفراد والشعوب، وكِيان الأمم والمجتمعات القراءة والكتابة وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر)[1] وبالعلم تبنى الأمجاد وتشيد الحضارات وتَسُود الشعوب، وتبنى الممالك، بل لا يستطيع المسلم أن يحقق العبودية الخالصة لله تعالى وَفق شرعه، فضلاً عن أن يبني نفسه كما أراد الله سبحانه أو يقدم لمجتمعه خيراً، أو لأمته عزاً ومجداً ونصراً إلا بالعلم وما فشا الجهل في أمة من الأمم إلا قوض أركانها، وصدَّع بنيانها، وأوقعها في الرذائل والمتاهات المهلكة.

ومن سلك طريقاً يظنه الطريق الموصل إلى الله تعالى بدون علم فقد سلك عسيراً، ورام مستحيلاً، فلا طريق إلى معرفة الله سبحانه والوصول إلى رضوانه إلا بالعلم النافع الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، فهو الدليل عليه، وبه يُهتدى في ظلمات الجهل، وشبهات الفساد والشكوك.

والعلم الشرعي: هو العلم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وهو القاعدة الكبرى التي تبنى عليها سائر العلوم وحملة العلم الشرعي هم ورثة الأنبياء، والأمناء على ميراث النبوة، ومتى ما جمعوا بين

---

1 رواه احمد وأبو داود، والترمذي، وأصله في الصحيحين

العقيدة الصحيحة والعلم الشرعي المتوج بالأدلة الشرعية مع الإخلاص لله سبحانه والتأدب بآداب العلم وأهله، فهم الأئمةُ الثقات، والأعلامُ الهداة، مثلُهم في الأرض كمثل النجوم يُهتدَى بها؛ قال صلى الله عليه وسلم: (إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء؛ يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة).

قال الحافظ ابن رجب وهذا مثل في غاية المطابقة؛ لأن طريق التوحيد والعلم بالله وأحكامه وثوابه وعقابه لا يدرك إلا بالدليل، وقد بين الله ذلك كله في كتابة، وعلى لسان رسوله، فالعلماء بما أنزل الله على رسوله هم

الذين يهتدى بهم في ظلمات الجهل والشبه والضلال، فإذا فقدوا ضل السالك وهم أهل خشية الله، وشهدائه في أرضه، وخلفاء الرسول في أمته، فمن كان بالله أعرف كان منه أخوف؛ لأنه كلما كانت المعرفة به أتم، والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم، وأكثر فالخشية: هي التي تحول بين العبد وبين معصية الله، وتدعوه إلى طاعته والسعي في مرضاته قال الحسن البصري العالم؛ من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغَّب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا قول الله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)؛ وهذا هو العلْم الحقيقي الذي ينفع صاحبه؛ فإن العلم ليس عن كثرة المعرفة والحفظ، ولكن العلم عن كثرة الخشية، فهو نور يجعله الله في القلبِ فالعلم بغير ورع ولا طاعة كالسراج يضيء البيت بنوره، ويحرق نفسه وماذا يفيد العلم جُمَّاعَ القول المصرين على معاصيهم وأخطائهم، الذين يستمعون القول ولا يتبعون أحسنه روى عبد الله بن وهب عن سفيان: أن الخضِر قال لموسى عليهما السلام: يا ابن عمران، تعلم العلم؛ لتعمل به، ولا تتعلمه؛ لتحدث به، فيكون عليك بُوره، ولغيرك نوره.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: أخوف ما أخاف إذا وقفت بين يدي الله أن يقول: قد علمت فماذا عملت وفي منثور الحكم: لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به فثمرة العلم أن يُعمَل به؛ لأن العلم يهتف بالعمل فإن أجابه

وإلا ارتحل وخير العلم ما نفع، وخير القول ما ردع، ومن تمام العلم استعماله، ومن تمام العمل استقلاله، فمن استعمل علمه لم يخل من رشاد، ومن استقل عمله لم يقصر عن مراد وإن القلب ليعصره الألم عصراً حينما يرى بعض من طرقوا أبواب العلم الشرعي فلم يرفعوا بذلك رأساً، تعلموا من العلوم والأحكام الكثير، ولكن الأثر مفقود وإن المرء ليتساءل: أين العلم الشرعي ممن أضاعوا الصلوات، واتبعوا الشهوات؟! وأين العلم الشرعي ممن أسبلوا الثياب، وحلقوا اللحى وتعاملوا بالربا، وهجروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووقعوا في المعاصي، مع أنهم يعلمون يقيناً أن هذه كلَّها ممنوعة محرمة على المسلم وقد أثِر عن جماعة من السلف أنهم كانوا لا يتجاوزن عشر آيات من كتاب الله حتى يتعلموا ما فيها من العلم ويعملوا به قال بعض السلف: كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به فترك العمل بالعلم من أقوى الأسباب في ذَهابه ونسيانه قال على رضي الله عنه: يا حملة العلم اعملوا به، فإن العالم من عمل بما علم، فوافق عمله علمه، وسيكون أقوام يتعلمون العلم لا يجاوز تراقيهم يخالف عملهم علمهم وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقاً، فيباهي بعضهم بعضاً، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه إذا جلس إلى غيره وتركه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عز وجل ولقد ضرب المصطفى صلى الله عليه وسلم مثلاً لطلاب العلم،

وأحوالهم في الاستفادة مما تعلموا؛ فقال:(مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً؛ فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس؛ فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ؛ فذلك مثل من فقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسِلت به).

ومن آفات العلم، وأسباب محق البركة عنه أن تُطلَب به الرئاسة على الخلق، والتعاظم عليهم، وأن يريد طالبه بعلمه أن ينقاد له الناس، ويخضعوا له، وأن يصرفوا إليه وجوههم؛ فيُظهِر للناس زيادة علمه على العلماء، ليعلو به عليهم، ونحو ذلك، فهذا موعده النار فقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: (من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار)؛ وقال (لا تعلَّموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار).

قال الحسن البصري: لا يكن حظ أحدكم من علمه أن يقول له الناس: عالم كما أن عليه أن يخلص في طلب العلم لله تعالى وأن يصبر فيه وعليه ويصابر، ويحذر من الاستعجال في الحصاد؛ فإن البداية مزلة،

ومن تصدر قبل حينه فضحه الله في حينه فالتقوى هي أساس العلم، ومفتاح الفهم.

وتنطلق أهمية العلماء من بيان الله تعالى لمكانتهم ودورهم المتميز في الأمة الإسلاميّة، فالعلماء هم أولو الأمر يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} ويقول تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} وأي مجتمع يقدّر قيمة العلم والثقافة فإنه يجعل للعلماء الصدارة والتقدّم والمكانة الرفيعة ومن علامات ضعف المجتمع وهزاله وانحرافه أن يتقدمه المغنون واللاعبون وسقط الناس وأراذلهم ومنزلة العلماء العالية في الإسلام من الأمور المحكمة المتفق عليها التي لا يعرف فيها مخالف لأهمية وقيمة ما يحملون وهو العلم والمراد بالعلماء هنا علماء الشريعة، فكل النصوص الشرعية التي أثنت على العلماء وبينت منزلتهم تعني علماء الشريعة وليس العلم المادي الطبيعي، فهو ممدوح لغيره، والعلم الشرعي ممدوح لذاته .

الناظر لأحوال أمة الإسلام في وقتنا الحاضر يرى مدى تقصير الناس في حق علماءهم، حيث أصبح الحديث عنهم فاكهة المجالس، والذم والقذف سمة بارزة عنهم، والتنقيص من قدرهم ظاهرة منتشرة بين بعض الناس، حتى أصبح فئام من الناس زاهدين فيهم وفي علمهم،فهل

يليق بالمسلمين أن يفعلوا ذلك مع من عظّم الله شأنهم، وأعلى قدرهم، وأثنى عليهم، وأفاض عليهم من معين فضله قال تعالى:(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

أدلة فضل العلم والعلماء من القرآن:

فمن ذلك قول الله عز وجل في أعظم شهادة في القرآن: (شَهِدَ اللّهُ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلاّ هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُو العِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلاّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) ذكر الإمام ابن القيم أن في هذه الآية عشرة أوجه تدل على شرف العلم وفضل العلماء ومنها:

1 أن الله عز وجل استشهدهم من بين سائر الخلق.

2 وضمّ شهادتهم إلى شهادته تعالى.

3 وضم شهادتهم إلى شهادة ملائكته.

4 وكونه تعالى استشهدهم فمعناه أنه عدّلهم؛ لأنه لا يمكن أن يستشهد بقولهم إلا وأنهم عدول وفي هذا جاء الأثر: يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله.

5 أنهم جعلهم هم والأنبياء في وصف واحد، فلم يفرد الأنبياء عن العلماء، فأشهد نفسه، ثم أشهد ملائكته ثم أشهد أولي العلم، الذين على رأسهم الأنبياء، ومن ضمنهم العلماء.

6 أنه أشهدهم على أعظم مشهود به، وهذه أجلُ وأعظم شهادة في القرآن؛ لأن المشهود به هو: شهادة: إن لا إله إلا الله التي لا يعدلها شيء .

أدلة فضل العلم من السنة المطهرة:

أما الأحاديث فكثيرة جدًا منها ما ثبت في الصحيحين، من حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: مَنْ يُرِدِ اللهُ بهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّين ومعنى الحديث أن من أراد الله به خيرًا وَفقه لهذا العلم .

وما ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما عند أبي داود وابن ماجه والترمذي بسند صحيح أنه قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنّةِ، وَإِنّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ» وهذا حديث عظيم يبين مكانة ومنزلة أهل العلم .